قيامة الجنس البشري

الأرشمندريت أليشع، رئيس دير السيمونوبترا، أثوس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في الخدمة المهيبةِ يومَ الجمعة العظيم، أنشدنا قطعة "المجد" الرائعة الآسرة في الساعة التاسعة "اليوم عُلّق على خشبة الذي علّق الأرض على المياه"، والتي تنتهي بـ "نسجد لآلامك أيها المسيح. فأرِنا قيامتك المجيدة". بعد ذلك، في قطعة "المجد" على صلاة غروب يوم السبت العظيم، اليوم الذي "استراح فيه ابن الله الوحيد من كل أعماله، من خلال تدبير الموت"، رأينا أن الرب قد استراح في الجسد، لأن هذا هو السبت المبارك، يوم راحة الرب العظيم.

واليوم ، "يعود صانع السماء والأرض إلى حيث كان..." ويظهر لنا قيامته المجيدة. لذلك جاء يوم الفصح المقدس هذا العام كنسيم منعش في هذا العالم المضطرب والمحاصر. لقد جاء، عاد حياً، ليملأنا بالفرح ويوقظ فينا الإحساس العميق بأننا أبديون وأن عدونا الأخير، الموت الرهيب، قد هُزِم الآن.

لقد فتح لنا الرب القائم من بين الأموات الطريق إلى السماء من جديد، "محطماً البوابات البرونزية". لقد أقامنا وصالحنا مع الله الآب وأزال العقبات أمام تقدمنا بلا عوائق نحو الأبدية، "المدينة الباقية " السماوية الراسخة. كل عام، مع الترانيم والتسابيح والأوديات والطروباريات و"الدف والرقص" والرموز والاحتفالات، مزينة بالمواد الثمينة، والفن، والأثواب المعطرة والزهور، حتى مع أطعمة مختارة، وبعبارة أخرى مع كل ثرواتنا الإنسانية، الطبيعية والروحية، تحاول الكنيسة أن تدخلنا في هذه الأجواء البهيجة. كل شيء يفيض بالفرح والحماس والحيوية، ليمنحنا طعم مجد الملكوت وعذوبته، ويصل بنا إلى تجلي نفسنا العظيم: إننا اليوم نحتفل، ليس فقط بقيامة الرب، وهي الدليل على قوة الآب، ولكن بشكل خاص، بقيامتنا وميراث الحياة الأبدية، اللذين منحنا إياهما المسيح كعطية فريدة نهائية بموته وقيامته.

إن القديس لوقا الإنجيلي هو أول من نقل جواب الرب بخصوص قيامة الأموات: " الَّذِينَ حُسِبُوا أَهْلًا لِلْحُصُولِ عَلَى ذلِكَ الدَّهْرِ وَالْقِيَامَةِ مِنَ الأَمْوَاتِ.. لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَمُوتُوا أَيْضًا،لأَنَّهُمْ مِثْلُ الْمَلاَئِكَةِ، وَهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ، إِذْ هُمْ أَبْنَاءُ الْقِيَامَةِ". كما أن القديس بولس يقول بجرأة ووضوح غير عاديين في أصحاحه عن قيامتنا: " إِنْ لَمْ تَكُنْ قِيَامَةُ أَمْوَاتٍ فَلاَ يَكُونُ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ! وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلَةٌ كِرَازَتُنَا وَبَاطِلٌ أَيْضًا إِيمَانُكُمْ... إِنْ كَانَ لَنَا فِي هذِهِ الْحَيَاةِ فَقَطْ رَجَاءٌ فِي الْمَسِيحِ، فَإِنَّنَا أَشْقَى جَمِيعِ النَّاسِ."

ولكن الحقيقة هي أن المسيح قام وأسس قيامة جميع الراقدين. لأنه كما جاء الموت إلى العالم بإنسان واحد، كذلك، بإنسان آخر جاءت القيامة من بين الأموات. فكما نموت جميعاً من خلال قرابتنا لآدم، كذلك بسبب قرابتنا للمسيح، فإننا جميعاً نعود إلى الحياة.

إذن ، فإن مفتاح قيامتنا مصنوع من ذهب قيامة الرب الثمين الذي لا يتلف ولا تشوبه شائبة. بدون قيامة الرب، أي خير هي الأعمال والجهادات والتضحيات؟ كما يقول القديس بولس عدة مرات، لماذا نجازف بحياتنا

كل يوم؟ "إِنْ كُنْتُ كَإِنْسَانٍ قَدْ حَارَبْتُ وُحُوشًا فِي أَفَسُسَ [لأسباب بشرية بحتة لا من أجل الله ورجاء الخيرات الآتية]، فَمَا الْمَنْفَعَةُ لِي؟ إِنْ كَانَ الأَمْوَاتُ لاَ يَقُومُونَ، «فَلْنَأْكُلْ وَنَشْرَبْ لأَنَّنَا غَدًا نَمُوتُ!»".

إن أساس إيماننا الأرثوذكسي هو على صخرة قيامة الرب التي لا تتزعزع. من حيث الجوهر، هذا ما نعترف بـه، وهذا مـا نحتمـل ونمـوت من أجلـه، مؤمـنين بقيامتنـا وراجين إياهـا. إن قيامـة الـرب هي حـوار محبٌ بـالكلام والفرح والشركة مع الله والحديث باسمه. إنها ما جعله رجاءَنا الحيَّ الشخصي في خضمِّ جهاد الحياة الروحيـة الجبار ضد الخطيئة التي تريد أن تعيدنا إلى الناموس وتخضعنا لرباطاتهـا. إن الخطيئـة فعليـاً لا تسـيطر علينـا لأننا تحت النعمة ولسنا تحت الناموس.

كل يوم، وفي كل لحظة، يمنحنا المسيح، الذي صار رجاءنـا، الفرصـة لنُنهِضَ أنفسـنا من بعـد زلاتنـا ونتحـرر من عبودية الخطيئة التي تخضعنا لناموسها وتتملَّك أعضـاءنا. يصـرخ القـديس بـولس بحـقٍّ: "وَيْحِي أَنَا الإِنْسَـانُ الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَـدِ هـذَا الْمَـوْتِ؟" ويجيب على الفـور: " أَشْـكُرُ اللهَ بِيَسُـوعَ الْمَسِـيحِ رَبِّنَـا!". يسـوع المسيح، ربنا القائم من بين الأموات، لأنه الآن مـا من إدانـة لشـعبه... بسـببه، قـانون الـروح الـذي يعطي الحيـاة حرَّرنا من ناموس الخطيئة والموت.

وهكذا، فإن قيامة الرب ليست مجرد رسالة عظيمة أو أبدية، بل هي تشكّل حـدثاً يوميـاً وتجربـة شخصـية في مسار حياتنا على الأرض. ما من شيء سوى القيامة قويٌ وملائمٌ بما يكفي لتزويدنا بالتعزية والقوة والشجاعة. لا شيء آخر يمكن أن يمنح الحياة والسعادة والمجد المستقبلي لنا وللإنسانية جمعاء.

إن روح الآب، الآب الـذي أقـام يسـوع من بين الأمـوات، سـيعطي الحيـاة لأجسـاد الـذين مـاتوا من كـل أنـواع المعاناة والشكّ والتساؤل والتجارب. سيفعل ذلـك من خلال نَفَسـه الـتي يسـكن في داخلهم، عنـدما يُلبَسُ هـذا الجسد الفاسد البقاء، عندما يرتدي المائتُ عدم الموت. عندها ستصدق كلمات القديس بولس: "ابتُلع الموت في الغلبة. اين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا جحيم؟"

لكن قيامة الرب لم تجعلنا غير قابلين للفساد والتحوّل هنا والآن، بل ترك الله لنـا قابليـة التحـوّل كبركـة للوفـاء بوعده الأصلي لنـا: أي حريتنـا. لم تغيِّر سـقطتُنا نيـة الله. لقـد تغيّـرت خطتـه وحسـب، لكنـه أبقى على الحريـة كعنصر أساسي في الطبيعة البشرية، والتي لا يمكن أن تلغيها أي خطيئة أو كارثة أو حرب أو جائحة أو ظروف قاسية. إن قابلية التحوّل، كما يقـول اللاهـوتي السـامي القـديس غريغوريـوس النيصـي، ليسـت مجـرد فرصـة للتغيّر إلى الأسوأ، إذ عندها لن يُنجَز أي خـير، إذا كـانت الطبيعـة البشـرية تميـل باسـتمرار نحـو العكس. والآن أعظم إنجاز للتحوّل هو ممارسة الفضـائل. إن ذلـك مثـل الجنـاح الـذي يسـاعد على التحليـق نحـو الأعلى بـدل التدهور. بهذه الطريقة، يصبح "الشيء الرهيب وهو قابلية التحوّل" قوةً للتغيير نحو الأفضل. يحثنـا القـديس على ألا نحزن عندما "نرى ميل طبيعتنا نحو التحوّل، فلنتغيّر للأفضل، نتحول من مجد إلى مجد".

أخيراً، قيامة الـرب فتحت وجـددت المصـالحة بين غـير الفـاني والفـاني. سـمحت بـدخول النعمـة الإلهيـة غـير المخلوقة إلى الإناء الخزفي، كما كـان الحـال في الفـردوس، حـتى يتمكن الـرب، بعـد قيامتـه، من الـدخول إلى المكان الذي كان يجتمع فيه تلاميذه "خلف الأبواب المغلقة". لقد كانوا يتحـدثون عمـا جـرى في أورشـليم: أن

الرب قد قام. وأنه قد ظهر لهم في عمواس "عند كسر الخبز". "ظَنُّوا أَنَّهُمْ نَظَرُوا رُوحًا"، لكنه هدأهم وقال: " اُنْظُرُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ: إِنِّي أَنَا هُوَ! جُسُّونِي وَانْظُرُوا، فَإِنَّ الرُّوحَ لَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَعِظَامٌ كَمَا تَرَوْنَ لِي». وَحِينَ قَالَ هذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ" ليقنعهم تماماً.

إذن، في شخص المسيح يتعايش المخلوق وغير المخلوق في نفس الوقت، بدون تشويش أو انقسام. النعمة الإلهية للروح القدس في هيكل جسد المسيح، الذي هو إله وإنسان، وهي كعطية بالنعمة في هيكل جسدنا نحن البشر الخالصين. في العالم الطبيعي، العنصر الرئيسي والأسرع والأكثر إبلاغاً في أعماله هو النور الذي نشأ بكلمة الله الخالق.

في العالم الروحي، عالم العلاقة والشركة المتبادلة مع الله، يكون النور مرة أخرى هو الوسيلة المباشرة. نور الشمس يضيء الطبيعة، ونور الله الحقيقي "ينير كل إنسان آتٍ إلى العالم"، حتى أننا "بنور شخص المسيح" يمكننا أن نرى النور غير المادي الذي يتعذر الوصول إليه. على مر العصور، ختم هذا النور كل ظهور إلهي يستعلن في أحداث وأشخاص شعب الله. إن النُّور الذي انبعث في ساعة القيامة من قبر المسيحِ " الأكثر بهاءً من خدر العروس"، هو نور شخص المسيح، إنه هويته الخاصة، إنه قوته العجائبية، إنه نعمته التي تختم حياة جميع القديسين بلا استثناء، القدماء والمعاصرين.

في محادثة خاصة مع القديس إفرام الكاتوناكي الذي أُعلِنَت قداسته حديثاً، ذكرَ أنَّه، في الاختطاف الروحي، رأى المسيح "في كل مجده". صعد إلى قمة التل بجانب قلايته وصرخ في كل مكان، حتى إلى الملائكة، ليبتعدوا عن الطريق ولا يعيقوا هذه المعاينة للنور الإلهي. وهو لم يكن وحده في هذا. يخبرنا القديس بايسيوس أن الرهبان العاديين ذوي القلوب الطاهرة، الذين فقدوا بصرهم الجسدي، يمكنهم رؤية النور الحقيقي وأن كل ما يحيط بهم - قلاليهم، الجداول، والوهاد - كان مملوءاً بنور المسيح. لقد منحتنا قيامة المسيح نورَه الذي لا يغرب ولا يخفت أبداً.

إن حواسنا الطبيعية والروحية، على وجه الخصوص، مؤقلمة على النور الإلهي. إن نوسنا وروحنا يستنيران؛ يفهمان ويشعران؛ يتحدان ويكتسبان القوة؛ ويبدآن المهمة الكبرى المتمثلة في التقرّب من الله ومعرفته. كما يقول قديس عظيم آخر، نيكولا أوخريدا (فيليميروفيتش)، إن الأشخاص الذين يركّزون على أنفسهم ويتّحدون بأنفسهم يتمتعون بقدر كبير من القوة في هذا العالم؛ إنهم قائمون من الموت. ويضيف الشيخ إميليانوس أن خبرة تلقي نور القيامة هي شيء نشعر به كانعكاس في أعماق وجودنا... ولكننا في الجوهر نرى عمق ألوهية المسيح... هذه أشياء منحها الله لا للحكيم أو الذكي ومَن شابه، بل للذين يبسّطون وجودهم... ويثبّتون أعينهم الداخلية على الله. هؤلاء هم الناس الذين يهبهم الله المعاينة".

إذ نحفظ مواهب قيامة الرب ككنوز ثمينة، فلنقدّمْ له، أيها القراء الأعزاء، بعض كلمات صلاة مستعارة من الشاعر الكبير والفيلسوف والقديس نيكولا أوخريدا: 'إيماني يراك يا رب؛ إنه نور عينَيَّ وبصيرتهما... رجائي ينتظرك يا رب. إن توقعك هو المحتوى الوحيد والمعنى الوحيد لِغدي والأيام التي تليه... (أعلم أن) السماء لا تحقق الآمال بل الرجاء. المحبة تجعلني الله وتجعلك أنت، يا الله انساناً!'

الرب كائن ويكون الربَّ القائمَ من بين الأموات، هو ربي القائم من بين الأموات الذي أقام الموتى "من انفجار الصبح إلى الليل". ما الذي يليق بالله الحي أكثر من إقامة الأموات في الحياة؟ فليؤمن الآخرون بإله يستدعي الناس ويدينهم. أنا ألتصق بالله الذي يقيم الأموات.

لقد أشرق النور من القبر؛ هلموا خذوه. الآن بشكل باهت، لكنه أكثر قوة في يوم ملكوت الله الأبدي. لنضمّ صوتنا إلى صوت أبينا القديس يوحنا الذهبي الفم: "لأن المسيح قام من بين الأموات وصار باكورة الراقدين. له المجد الى دهر الدهور. آمين".

Source: Archimandrite Elisaios, Abbot of the Holy Monastery of Simonos Petras. The Resurrection of Mankind. On 15 April 2023, https://pemptousia.com/2023/04/the-resurrection-of-mankind-1/, 16 April 2023, https://pemptousia.com/2023/04/the-resurrection-of-mankind-2/